

المحاضرة الثانية: المنظور الفلسفي والسوسيولوجي للمعرفة الإنسانية

أولاً: المنظور الفلسفي للمعرفة الإنسانية (الابستمولوجيا)

ماهي الابستمولوجيا؟

"مصطلح يوناني يتألف من شقين: "Epistme" وتعني نقد، دراسة، نظرية...، و"Logos" وتعني (معرفة) علم، ومن ثم فهي تعني اصطلاحاً نقد العلم أو نظرية العلم. إن الابستمولوجيا هي في حوار فلسفي ومنهجي مستمر مع القضايا العلمية ومبادئ العلوم المختلفة، تحاول أن تكتشف المشكلات والأزمات داخل النسق الفكري للعلم، وخارجياً في اكتشاف العلاقات المختلفة التي تربط مختلف المعارف وفق تصور فلسفي معين، ينطلق من الحقيقة ليعود إليها في جدال وحوار مستمر بحثاً عنها". (خواني، 2012، ص2)

الابستمولوجيا، بوصفها فرعاً من الفلسفة، تتشغل بالسؤال المعياري: كيف نعرف أننا نعرف؟ تبحث في شروط إمكان المعرفة، ومبررات الاعتقاد، وحدود العقل. تهتم بالانسجام المنطقي للقضايا وبحقيقة التطابق بين الذهن والواقع. الابستمولوجيا بشكل عام هي دراسة: طبيعة المعرفة، شروطها، حدودها، مصادرها. الابستمولوجيا الكلاسيكية تمحورت حول سؤال: "ما المعرفة؟ كيف نكتسب المعرفة؟ ما هي حدود المعرفة؟ وما هي معايير الصدق والصلاحية؟ وركزت على الإدراك الفردي وطبيعة الحقيقة.

المقاربة الفلسفية تبحث في الصلاحية (Validity)، وتفترض إمكانية وصول الذات العارفة إلى اليقين بشرط اتباع المنهج السليم. هنا تكمن "نقطة العمى" التي تستغلها سوسيولوجيا المعرفة: الذات العارفة ليست كائناً مجرداً، بل هي كائن اجتماعي واقع في التاريخ.

المنظورات الفلسفية للمعرفة متعددة، مثلاً: العقليون كأفلاطون، ديكارت، سبينوزا، وليبنيتز. فعقلانية (Rationalism) ديكارت: "أنا أفكر إذن أنا موجود". (Descartes, 1641/1996) التي تنظر إلى العقل كمصدر وحيد لليقين. يؤكد رينيه ديكارت في كتابه "تأملات في الفلسفة الأولى" (1641)، أن العقل البشري يمتلك القدرة على الوصول إلى الحقيقة بشكل مستقل عن التجربة الحسية التي غالباً ما تكون خادعة. والطرح ذاته مع شرط سبينوزا للتفكير المناسب، أي أن العقل هو السبب الوحيد للأفكار. "فالإنسان لا يتلقى المعرفة والعلم من الخارج، بل من عقله هو، من خلال مبادئ أولية في عقله سابقة عن كل تجربة". (السيد، 2011، ص 24)

على النقيض من ذلك، يرى التجريبيون مثل: جون لوك (John Locke) وباركلي ودافيد هيوم. في "مقال في الفهم البشري" (1690) كان جون لوك يرى أن "التجربة هي المصدر الوحيد لكل المعارف".

(Locke, 1690/1975) وبالتالي، يرفض التجريبيون "التسليم بأفكار فطرية موروثية، أو بمبادئ عقلية بديهية، أو بقوانين وأحكام عقلية سابقة على التجربة، وفي الوقت ذاته، يؤكد على أن المصدر اليقيني للمعرفة هو التجربة. أما بيرغسون -مؤسس المذهب الحسي الحديث- فيرى أن العقل عاجز تمامًا عن تزويدنا بالمعرفة، والحدس هو مصدر الإدراك وبالتالي هو مصدر المعرفة". (السيد، 2011، ص ص 25-27)

ثانيا: المنظور السوسيولوجي للمعرفة الإنسانية

يستكشف علم اجتماع المعرفة العلاقة المعقدة بين السياقات الاجتماعية وتكوين المعرفة. إن فهمنا لكيفية تشكل المعرفة وتأثرها بالمجتمع هو أمر جوهري لتحليل عالمنا المعاصر. هذا الحقل لا يهتم فقط بما نعرفه، بل يسأل السؤال الأكثر عمقاً: لماذا نعرف ما نعرفه بالطريقة التي نعرفه بها؟ كيف تتشكل أفكارنا ومعتقداتنا وحقائقنا العلمية ذاتها داخل رحم المجتمع؟ إن السؤال المركزي الذي يحرك هذا العلم ليس هو "ما هي الحقيقة؟" في معناها الفلسفي المجرد، بل "كيف تشكل الظروف الاجتماعية والبيئة الثقافية ما نعتبره حقيقة؟".

بينما كانت الاستيمولوجيا الفلسفية تركز على "العقل كجوهر فردي"، انتقلت سوسيولوجيا المعرفة إلى دراسة "الفكر كمنتج اجتماعي". فعلى عكس الاستيمولوجيا التي تركز على الجوانب الفلسفية والنفسية للمعرفة، يدرس علم اجتماع المعرفة كيف تتأثر المعرفة بالبنى الاجتماعية، الثقافة، والتفاعلات البشرية. لا ينظر علماء اجتماع المعرفة إلى المعرفة ككيان مستقل أو محايد، بل كمنتج اجتماعي يتشكل ويتغير بفعل القوى الاجتماعية. هذا التحول يعني أن أساليب تفكيرنا، ومفاهيمنا عن الزمان والمكان، وحتى معاييرنا لما هو "حقيقي"، مرتبطة بموقعنا في البنية الاجتماعية. فمثلاً، "ما يعتبره راهب في الهند حقيقةً وصادقاً، قد لا يكون كذلك بالنسبة لرجل الأعمال الأمريكي". (السيد، 2011، ص 32)

سوسيولوجيا المعرفة هي دراسة العلاقة بين النتائج الذهنية والظروف الوجودية التي تنشأ فيها. لا تسأل: هل هذه الفكرة صحيحة؟، بل تسأل: "ما الشروط الاجتماعية التي جعلت هذه الفكرة ممكنة ومقبولة؟" تختلف سوسيولوجيا المعرفة عن الاستيمولوجيا في أن موضوعها ليس "الحقيقة" بل "المعرفة" بمعناها الواسع: الأيديولوجيا، القانون، الفولكلور، التكنولوجيا، بل والمنطق ذاته. في سوسيولوجيا المعرفة ما نعتبره حقيقة/ واقع منذ زمن قد لا يكون كذلك تمامًا.

في علم اجتماع المعرفة، ترى المعرفة كمنتج اجتماعي، لا فردي. يركز على كيفية تشكل المعرفة بالسياقات الاجتماعية، الطبقية، والثقافية. مثلاً: يرى كارل مانهايم أن المعرفة مرتبطة بالموقع الاجتماعي. أما بيرغر ولوكمان فيريان أن الواقع مبني اجتماعياً، وبالتالي المعرفة اليومية هي أساس الواقع الاجتماعي. هذا المنظور يؤكد أن المعرفة ليست محايدة، بل مشروطة اجتماعياً، خلافاً للابستمولوجيا التي تركز على الفرد.

أعمال كل من دوركايم شيلر ومانهايم مثلت انتقالاً من معالجة المعرفة كسؤال فلسفي خالص، إلى دراستها كظاهرة اجتماعية مرتبطة بالبنى الطبقية، والدين، واللغة، والمؤسسات التعليمية والعلمية. كما دعا نوربرت إلياس إلى تجاوز النماذج الساكنة وربط إنتاج المعرفة بسيرورات اجتماعية طويلة الأمد؛ فالمعرفة لا تفهم إلا كعملية تاريخية تقع داخل مجتمعات ترى بدورها كسيرورات طويلة الأمد. (Elias, 1971)

اعداد د. فتيش وسيم